من بلاغة التعبير بالوجه في القرآن الكريم

السيد محمد سالم•
كمال عبد العزيز إبراهيم*

الملخص:

إن هذه الدراسة تهدف إلى تناول لغة الجسد كوسيلة اتصال غير شفهية والتي يعبر عنها شفهياً في القرآن الكريم. وأحد هذه الأشكال المستخدمة كلغة جسد هي تعابير الوجه والتي تلعب دوراً أساسياً في التعبير عن مختلف أنواع العواطف والمشاعر والأحاسيس خطابياً. إن تعابير الوجه في بعض الأحيان يمكنها أن توسع قدرتنا في التعبير عن المعاني، والتي – ربما - تعبر عنها اللغة بشكل أقل كفاءةً؛ ولهذا تُعَدُّ قناة أساسية للتواصل غير الشفهي. ولعل هذا بسبب الحقيقة القائلة بأن الناس يمكنهم إيصال مشاعرهم وأحاسيسهم مثل الحزن، الاستياء، السعادة، الرضى ... إلخ من خلال وجوههم التي تنقل المعاني للآخرين وتؤثر فيهم بشكل عميق. وعليه فإن هذا البحث يهدف إلى الوقوف على تعبيرات لغة الجسد وبشكل خاص التعابير الوجهية المستخدمة في القرآن الكريم وكيف يتم التعامل مع مثل هذه التعابير بعَدِّها لغةً باستدلالات سيمائية. ولذلك ستعتمد الدراسة على المنهج الاستقرائي للتحليل، وتفسير آيات القرآن الكريم المتعلقة بالدور الخطابي للتعابير الوجهية من أجل إيصال المعاني وكشف المشاعر الضمنية التي تنعكس من خلال تلك التعبيرات،وبلاغتها وقدرتها في توصيل المعنى بالحركة واللفتة والإشارة.

الكلمات المفتاحية: التواصل غير الشفهي، لغة الجسد، تعابير الوجه، الدنيا والآخرة

تقديم :

وجه الإنسان هو أشرف جزء فيه،وهو مايواجه به الآخرين فيتعرفون من خلاله عليه،ويميزون به بين شخص وآخر مهما تشابهت الملامح،وعلى الوجه ترتسم أمارات الفرح والحزن والرضا والغضب،والقلق السكينة،والخجل والتبجح .. إلخ .

وبالجملة فهو المرآة تنعكس عليها كل الأحوال النفسية الباطنية وقد أشار الرازي (ت606) إلى شيء من ذلك في كتاب الفراسة منبهاً إلى أن دلالة الوجه على الأحوال النفسية أتم من دلالة سائر الأعضاء عليها "فإن للخجالة لوناً مخصوصاً في الوجه وللخوف لوناً آخر

•السيد محمد سالم، كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية - ماليزيا
* كمال عبد العزيز إبراهيم، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة - مصر

وللغضب لوناً ثالثاً وللفرح لونا رابعاً،وهذه الألوان متى حصلت في الوجه فإنها تقوي دلالتها على الأخلاق والأحوال النفسانية" [1].

ويشترك أبو حيان التوحيدي مع ماسبق في أن التغيرات التي تلحق الوجه تفضح المشاعر الداخلية،وإذا استطاع الشخص أن يخفي مشاعره بتنميق الكلمات أو بالتظاهر بالثبات،فإن وجهه لن يساعده على ذلك، يقول التوحيدي : "قل من يحاول أمرا جليلاً إلا كان القلق يبدو من حركاته إلى أن يمضيه،وقل من يخفي في وجهه صفرة الفرق وحمرة الخجل وإشراق السرور وكمد الحزن وسكون البراءة واضطراب الريبة" [2].

ويشتمل الوجه على أعضاء مهمة تتأثر بالمشاعر النفسية : فالجبهة والعينان والحاجبان والخد والشفتان والفم كلها أعضاء تقوم بدور مهم في التعبير "قإن تقطيب الجبين بحيث ترتسم عليه تجاعيد رأسية قد يعني الاستغراق في التفكير أو المباغتة،بينما لو ارتسمت عليه تجاعيد أفقية فإن هذا يعني الغضب أو التهديد،وفتح العينين واتساعهما يفيد الدهشة أو الفضول،والغمز بالعين قد يعني التآمر أو الشك أو المكر،ويتوقف هذا على حركة الشفتين" [3].

ونضيف إلى هذا ما يلحظ من تصعير الخد كبرا،وانفراج الشفتين ضحكاً أو بكاء،والعض على الشفتين ندماً وقلقاً،وارتفاع الأنف شموخاً وعزاً وانكساره ذلاً ورغماً .

وقد أبرز شعراء العربية دور الوجه في التعبير،فوجه سيف الدولة وضاح وثغره باسم في قول المتنبي :

تمر بك الأبطال كلمي هزيمة # ووجهك وضاح وثغرك باسم [4]

والوجه يرد على المحبوب سلامه وتحيته في قول الشاعر :

سلام وإن كان السلام تحية # فوجهك دون الرد يكفى المسلِّما [5]

وعلامات الحب والهوي تظهر في وجوه المحبين في قول الآخر :

الحب يُعرف في وجوه ذوي الهوى # باللحظ قبل تصافُح الأجفان [6]

---

(1) انظر (كتاب الفراسة) للرازي : أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر ص 149 ، تحقيق د. يوسف مراد ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – 1982م .

(2) انظر البصائر والذخائر – أبو حيان التوحيدي : علي بن محمد بن العباس 123/2، تحقيق : أحمد أمين ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر 1953م .

(3) الأصوات والإشارات – كندرانوف : ص 18 – ترجمة إدور يوحنا ، العراق .

(4) شرح ديوان المتنبي 102/4 – البرقوقي – دار الكتاب العربي – بيروت .

(5) انظر : التشبيهات : ابن أبي العون : أبو إسحق إبراهيم بن محمد ص 350 ، تحقيق د. محمد عبد المعين ط كمبردج 1950م وانظر كذلك : الإشارات الجسمية ص 164.

(6) انظر : الظرف والظرفاء : الوشاء ، أبو الطيب محمد بن إسحق ص 223 ط عامل الكتب بيروت 1324هـ .

وتتهلل أسارير الوجه وتضيء بالرضى والكرم في قول الشاعر :

فإذا نظرتَ إلى أَسِرَّةِ وجهِهِ # برقت كبرق العارض المتهلل [1]

والوجه القسيم هو الوجه الجميل الحسن في قول الشاعر :

فيوماً توافينا بوجهٍ مُقَسَّمٍ # كأنْ ظبية ترنو إلى وارق السلْم [2]

ولأبي حيان تعليل لطيف للتعبير بالوجه يقترب فيه من التعليل العلمي الحديث،فهو يوضح تأثير مثل تلك الانفعالات النفسية الباطنية على وجه الإنسان قائلا:

"إذا قوي الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف ولا سيما إلى الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فترى الوجه مشرقا متلألئاً،وإذا قوي الغم انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثر قوي في ظاهر الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية" [3] .

وقد يعبر بالوجه عن الذات وليس على الجزء المعروف كما في قوله تعالى :﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ (يوسف : 9) .

وقوله تعالى:﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ (البقرة : 112) .

والتعبير بالوجه عن جميع الذات يكون على سبيل المجاز المرسل : لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ويقال : وجوه القوم أي أشرافهم والعرب تستخدم الوجه للدلالة على الذات وقد أورد الزمخشري في ذلك ما يقوله مساكين مكة "أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان" [4] .

وقد وردت مادة (وجه) في القرآن الكريم في حوالي خمسة وسبعين موضعاً للدلالة على (الوجه) باسمه من مثل قوله تعالى : ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ (سورة المائدة : 6) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا** ﴾ (يونس : 105) .

أو (بالفعل) في مثل قوله تعالى:﴿ **وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ** ﴾ (القصص: 22)،أو (بالمعنى) في مثل قوله تعالى :﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ (البقرة : 115) فإن (تولوا) بمعنى (فعلتم التولية) وهي التوجه .

وبالتأمل في سياق الآيات موضع الوجه يمكننا تقسيمها إلى قسمين رئيسيين :

القسم الأول : يشمل الآيات التي فيها حركة الوجه من حيث اتجاهه وأوضاعه سواء أكان الوجه فاعلاً للحركة منفرداً بها مثل قوله تعالى :﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ** ﴾ (البقرة : 144) .

أو كانت الحركة واقعة على الوجه نتيجة التقائه بعضو أو أكثر من أعضاء

---

(1) لسان العرب مادة (سرر) ومادة (قسم) .
(2) لسان العرب مادة (سرر) ومادة (قسم) .
(3) البحر المحيط 504/5 .
(4) الكشاف 46/4 ط 1 الحلبي – مصر 1972م .

الجسم من مثل قوله تعالى : ﴿ **فَصَكَّتْ وَجْهَهَا** ﴾ (الذاريات : 29) .

أو جاءته الحركة من شيء خارج الجسم مثل قوله تعالى :﴿ **تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ (المؤمنون : 104) .

القسم الثاني : يشمل نظائر الحركات أو (الباراكينات) وهو مصطلح أطلقه (بيردوسل) على ما يشبه الحركات أو يناظرها ، ويقصد به "بعض التغيرات التي تعتري الوجه في مواقف معينة كتغير لون الوجه من اللون الطبيعي إلى الشحوب والاكفهرار أو من ذلك إلى التورد والاحمرار،وكما يتغير لون الوجه إلى السواد عند الشعور بالكآبة والغم والكرب،وإلى البياض عند الشعور بالفرح والسرور" [1] .

وشبيه بهذا قوله تعالى :﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ** ﴾ (الغاشية : 8)،وقوله تعالى :﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** ﴾ (القيامة : 22)،وقوله تعالى :﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ (آل عمران : 106) .

وسوف نتناول فيما يلي بالتفصيل الآيات التي وردت في كل قسم نستجلي من خلال ذلك بعض الأسرار البلاغية الكامنة وراء التعبير الحركي للوجه KINETICS أو ما يناظر هذا التعبير مما يسمى (الباراكينات) PARAKINETICS .

وسوف نلاحظ أن الحركة أو نظيرها قد تتم في الدنيا وقد تتم في الآخرة .

وعلى سبيل المثال : فإن تقلب وجه الرسول - ﷺ - في السماء بحثا عن القبلة قد تم في الدنيا ومثله صك السيدة سارة لوجهها عند ما بشرتها الملائكة بالغلام وهي عجوز عقيم ، بينما كب الوجوه في النار وتقلبها فيها وسحب أصحابها عليها ، والوجوه المسفرة النضرة أو العابسة الكالحة تتم في الآخرة . وعلى الجملة فإن حركة الوجه في الآخرة أكثر من حركتها في الدنيا وذلك لكونها مرتبطة بالآيات المكية التي تحذر من عذاب الآخرة .

القسم الأول : حركة الوجه Faces Kinetics

تحت هذا العنوان أمكن حصر المواضع الآتية لحركة الوجه فاعلاً للحركة أو واقعة عليه منفرداً بها أو مشتركا مع عضو آخر من أعضاء الجسد أو حتى مع شيء خارج عن الجسد وهذه المواضع هي :

1- **تقلب الوجه في السماء وتوليته إلى القبلة :**

- يقول الله تعالى : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ (البقرة : 144) .

ويقول أيضاً ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ (البقرة : 115) .

[1] انظر في ذلك (دراسات في علم اللغة) د. فاطمة محجوب ، ص 197 .

والآية الأولى نزلت في حادثة تحويل القبلة ومناسبتها وأسبابها معروفة في كتب التفسير وأسباب النزول [1]

ولكننا نقف عند قوله تعالى : ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ** ﴾ بشيء من التأمل .

- فإن تقلب وجهه - ﷺ- يميناً ويسارا يظهر ضيقه وتبرمه من توجهه إلى بيت المقدس حيث قبلة اليهود الذين آذوه ومكروا به واتخذوا من توجه الجماعة المسلمة إلى قبلتهم وسيلة لإثارة الفتنة والشك في نفوس المسلمين "فقد كانت الكعبة قبلته وهو بمكة ، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفا لليهود" [2].

إن رغبة الرسول - ﷺ - الكامنة في نفسه في التوجه إلى الكعبة هي رغبة الإنسان السوي الذي يتعلق بأرض أجداده وميراث آبائه . فإن الكعبة في التراث الروحي الإيماني هي قبلة جديه إبراهيم وإسماعيل وهي للعرب القداسة والعزة والكبرياء فتقلب وجهه في السماء كناية عن تلك الرغبة التي يرى الرسول أن تحقيقها سيحفز العرب إلى الدخول في الإسلام ويوحدهم نحو هدف واحد .

وقد جاء التعبير القرآني بعد ذلك ﴿ **فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا** ﴾ "تأكيداً للوعد بالصراحة بعد التمهيد لها بالكناية" [3].

ثم جاء الأمر بعد ذلك للأمة الإسلامية كلها ﴿ **وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ وذلك لبيان أن الحكم عام له ولأمته ولبيان أن الأمر ليس مقصورا على أهل المدنية فحسب بل يشمل المسلمين في كل مكان .

إن التعبير عن حركة الوجه بالتقلب بصيغة التفعل يوحى بكثرة الحركة ؛ لأن من رفع رأسه في السماء مرة واحدة لا يقال فيه قلب بصره في السماء وإنما يقال ذلك إذا تكرر هذا الفعل . وهذه الكثرة بدورها تعكس الرغبة الشديدة في التحول عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - .

وإذا كان الإنسان يستقبل القبلة بكامل جسمه لا بوجهه فحسب،فإن التعبير بالوجه جاء على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته (الجزئية) ولأنه أشرف الأعضاء أيضاً.

أما تنكير (قبلة) في الآية فلأنها – كما يقول أبو حيان :

"لم يذكر قبلها ما يقتضي أن تكون معهودة فتعرف باللام" [4].

---

(1) انظر في ذلك : البحر المحيط 427/1 - وأسباب النزول للسيوطي : هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم إعداد محمد الحمصي : 45 دار الفكر ، دمشق .

(2) البحر المحيط 423/1.

(3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور 27/2.

(4) البحر المحيط : 428/1.

ونرى أن التنكير يفيد – إلى جانب ذلك أيضاً – التعظيم والتشويق إلى معرفة كنهها . ثم وصفها بعد ذلك (بترضاها) ليطمئن قلبه .. ثم ترقى وتدرج إلى تعيينها فقال : ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ (البقرة : 144) .

أما الآية الثانية ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ فإن حركة الوجه فيها مفهومة من الفعل ﴿ **تُوَلُّوا** ﴾ لأن المفعول به ﴿ **وُجُوهَكُمْ** ﴾ محذوف لأن التولية تعنى الاتجاه ولا يتحقق ذلك إلا بالوجه أولاً ..

وقد يتبادر إلى الذهن أن استفتاح الآية بقوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** ﴾ يعني أن الاتجاه إلى القبلة المعهودة (المسجد الحرام) ،ليس شرطاً في الصلاة ولكن ذلك غير صحيح ؛ لأن الآية المذكورة وردت في سياق آية قبلها تتحدث عن المشركين الظلمة الذين كانوا يمنعون المسلمين من ذكر الله في المساجد [1] .

فبينت الآية أن "المشرق والمغرب لله ، فأي جهة أديتم فيها العبادة فهي لله وهو يثيب على ذلك ،ولا يختص مكان التأدية بالمسجد" [2] .

أو ربما تعني الآية صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت .. ولكن التوجيه الأول أقرب إلى السياق وأولى بالقبول .

2- صكّ الوجه :

الصك على الوجه حركة تلتقي فيها اليد مع الوجه،يعبّر بها صاحبها عن دهشته وحزنه واستنكاره لأمر مّا ، وغالباً ما يحدث هذا عند ما يتلقى المرء خبراً مفاجئاً غير سار كأنباء الموت وأخبار الكوارث غير المتوقعة ، ويبدو هذا التصرف بصورة أكثر عند النساء . وتصاحب هذه الحركة عبارات تنمّ عن الجزع والتعجب ، فتزيد الحركة من قوة الأداء اللغوي وتأثيره ، وقد أشار ابن جنّي إلى ذلك وهو يعلق على قول شاعر يصف تلك الحركة وقد صدرت من زوجته :

تقول وصكّت وجهها بيمينها # أَبَعْلِيَ هذا بالرحى المتقاعِس

يقول ابن جني : " ... فلو قال حاكياً عنها (أبعلي هذا بالرحى المتقاعس) من غير أن يذكر صك الوجه ؛ لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ؛ لكنه لما حكى الحال فقال (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها ، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين ، ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله (وصكت وجهها) لم تعرف حقيقة تعاظم الأمر لها " [3] والقرآن الكريم يحدثنا عن مثل هذا الموقف ، وهو يحكي حال السيدة سارة زوج إبراهيم عليه

(1) راجع الآيات (114-115) من سورة البقرة .
(2) البحر المحيط : 360/1 .
(3) الخصائص – ابن جني 245/1-246 تحقيق محمد علي النجار ط – بيروت . وانظر كذلك الإشارات الجسمية 37=38 .

السلام ، حينما بشّره ضيوفه من الملائكة بغلام عليم بعد ما أنكرهم وأوجس منهم خيفة ، ولقد كان وقع الخبر على السيدة سارة عظيما وظهر أثر هذا بالفعل وبالقول في سورة الذاريات (29 – 30) ﴿ **فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ت وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** ﴾ وكذلك في سورة هود (72 - 73) ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** ﴾ إنها عند ما فوجئت بهذا الخبر أصابتها حالة من الدهشة والاستنكار والتعجب ، وقد عبرت عن هذه الحالات بثلاثة أشياء :

1. بالصيحة العالية والتأوه الشديد وقد عبر القرآن عن ذلك بالحال شبه الجملة (في صرة) وأصل الصرة الصياح الشديد عند وقوع أمر مستغرب وقد تضمنت الصيحة الدعاء بالويل والهلاك (يا ويلتى) فكأنها تستدعى الهلاك والموت لنفسها قائلة : (أقبل أيها الموت فهذا أوانك) وذلك خوفاً من افتضاح أمرها .
2. بلطم خديها بكفيها بشدة على عادة النساء في مثل هذه المواقف المفجعة وقد عبر القرآن عن ذلك بـ (صكّت وجهها) ومادة (صك) توحى بالضرب الشديد وصوت الاصطكاك يوحي بذلك .
3. بالقول وقد عبر القرآن عنه في صورتين :

الأولى : ﴿ **عَجُوزٌ عَقِيمٌ** ﴾ في سورة الذاريات وقد حذف فيها المسند (أنا) للاستعجال وضيق المقام .

والثانية : ﴿ **وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾ في سورة هود ، وفيها استفهام إنكاري وتعجب من تلك البشارة إذ كيف تلد وهي عجوز وزوجها شيخ ؟!

وقد أشار أبو حيان إلى أن صك الوجه "فعل من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء"[1] .

كما يشير في موضع آخر إلى أن الدعاء بالويل في (يا ويلتى) ونحوه "يرد في التفجع لشدة مكروه يدهم النفس ، ثم استعمل بعد ذلك في عجب يدهم النفس،وكلمة (يا ويلتى) كلمة تخف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، وقد كان مصدر عجب (سارة) هنا "من حدوث ولد بين شيخين" [2] .

وتجسد الحركة المصحوبة هنا بصيحة الاستنكار وبالخبر القولي بلاغة القرآن الكريم بالتصوير الحي الذي ينقلك إلى المشهد القديم قدم التاريخ أو ينقل المشهد إليك في

(1) البحر المحيط 140/8.
(2) المرجع السابق : 5-244.

الوقت الحاضر – وفي كلتا الحالتين فإن الغرض البلاغي والغرض الديني يتعانقان كي يؤديا دورهما في التأثير في نفس المتلقين للقرآن في كل زمان ومكان .

3- الانقلاب على الوجه :

وردت حركة الانقلاب على الوجه في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾ (الحج : 11) .

إن حركة الانقلاب على الوجه هنا تصور حالة نفر من الناس دخلوا الإسلام دخولا غير مطمئن ولا واثق ،إنه إسلام المنفعة الذي يقيس العقيدة بمقياس الربح والخسارة في الدنيا ومن ثم فهو لايصمد أمام التحديات .. وقد صورهم القرآن بأنهم (على حرف) أي على طرف من الدين لافي وسطه وقلبه وهذا كما يقول الزمخشري "مثل على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه" [1] .

وبضم صورة من يعبدون الله على حرف كأنهم وقوف على حافة هاوية تهتز أجسامهم لأقل ريح وتتعثر أقدامهم لأقل عثرة .. بضم هذه الصورة إلى صورة من ينقلب على وجهه يتجسم مشهد هؤلاء أمامنا وقد انقلبوا على وجوههم لأنهم لم يقفوا على أرض مطمئنة فالتعبير بالانقلاب على الوجه هنا كناية عن الارتداد عن الدين والعودة إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال .. والبلاغة هنا في تدرج الصورة وترقيها، لأن الوقوف على الحرف تمهيد للسقوط والانقلاب على الوجه .

4- الانكباب على الوجه :

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الملك : 22) .

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق خطاب الكفار والمعاندين عن طريق توجيه العديد من الأسئلة التبصيرية التحذيرية التي تقرع الأفئدة الغلف بمطارقها الحادة كي تفيق من غفلتها وتتنبه إلى مقدار الخطأ والخطل في عقيدتها .

وهي أسئلة تحذر من الخسف والحصب والنذير والنكير والغرور والعتو والنفور . [2]

وبعد ذلك تأتي الآية موضع الشاهد لتضع أمامهم سؤالاً يعرف إجابته كل من يسمعه ،لأن السؤال يتضمن مقابلة بين نقيضين أحدهما خير مطلق والآخر شر مطلق وهي

(1) الكشاف : 147/3.
(2) راجع الآيات (16 – 22) من سورة الملك .

المقابلة بين مثل من يمشي مكباً على وجهه ومن يمشي سويا على صراط مستقيم وأيهما أهدى سبيلاً .

والآية الكريمة تشبه حال الكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه بمن يمشي في طريق مليء بالعثرات فيها ارتفاع وانخفاض فهو لا يكاد يمضي حتى يخر على وجهه منكباً، وتشبه حال المؤمن وقد اطمأن قلبه بالإيمان وأضاءت له عقيدته طريقه فوضحت معالم الهداية أمامه بمن يمشي معتدل القامة في طريق معلومة البداية والنهاية (صراط مستقيم) ووصف الصراط بالاستقامة تأكيد على أن المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين فلا تعرجات ولا انحناءات ولا عثرات .. فالمؤمن بالمقارنة بمن سبقه لا شك أهدى وأقوم .

"ويجوز أن يراد بالمكب على وجهه : الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق السوي المهتدي له ، وهذا من قبيل الاستعارة التمثيلية التي شبهت فيها حالة بحالة وقد حذفت الحالة المشبهة واستعيرت لها الحالة المشبه بها" [1] إن الوجه – بما فيه من معاني العزة والشرف – إذا انكب إلى الأرض رغم صاحبه وذل وإذا التصق بالأرض فلن يري غير ترابها ولن يستطيع الاهتداء إلى الصواب فهل هناك ضلال أبعد من ذلك ؟ ومن ثم كان الاستفهام في الآية كما يقول أبو حيان : "لا تراد حقيقته بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن الماشي على صراط مستقيم أهدى" [2] .

وتتضمن الآية بعض الملامح الفنية البلاغية التي تساعد في رسم الصورة الوضيئة المشرقة أمام المسلمين كي يثبتوا على إيمانهم ، وتجسم النهاية المفجعة للكافرين فلا يكون لهم عذر حين يرون الحق واضحاً ويعرضون عنه ، ومن هذه الملامح :

- التعبير باسم الفاعل (مكبا) يوحي بأنه اختار بنفسه هذا الطريق الوعر وبأنه لما انكب – بنفسه – على المعاصي يعاقرها ويعل منها قاده ذلك للانكباب على وجهه في نار الآخرة وكان جزاؤه من جنس عمله كما جاء في سورة أخرى ﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ**﴾ (النمل : 90) .
- التعبير بصيغة فعيل (سويا) بدلا من اسم الفاعل (مستويا) رغم مناسبة اسم الفاعل هنا لاسم الفاعل السابق (مكبا) وذلك لأن (مستويا) ربما توحي فقط باستواء الخلقة بينما (سويا) توحي في الأعم الأغلب بالاستواء الحسي والمعنوي أي باستواء الخلقة والخلق وهو مطلوب من المسلم .

(1) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ، د. عبد الله هنداوي ص 89 .
(2) البحر المحيط : 303/8 .

● التعبير بـ(صراط) مفردا بدل الجمع للإيحاء بأن الذين يسلكون هذا الصراط الواحد يتميزون بعقيدة الإفراد والتوحيد لله سبحانه وتعالى وبأن الصراط الواحد لا يكون إلا للمعبود الواحد والقرآن الكريم يحذر في آية أخرى من اتباع السبل المتفرقة الكثيرة ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ (الأنعام : 153) ويدعونا إلى ﴿ **صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ** ﴾ (الشورى : 53) .

5- الوجوه المطموسة المردودة على أدبارها :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا** ﴾ (النساء : 47) .

● وسياق الآية هو الحديث عن اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في الآية السابقة ومن ثم ياتي التهديد بطمس الوجوه وردها على الأدبار،ومادة الطمس تعني المحو والإزالة "يقال طمست الشيء طمساً : محوته ، وطمسته : استأصلت أثره ومنه ﴿ **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ** ﴾" [1] وهو تهديد مناسب لفعلتهم القبيحة فتبديل وجوههم وطمسها وتشويهها جزاء لمن بدل كلام الله وحرفه وأزاله عن موضعه أو فسره تفسيراً مخالفا لمقصوده .. وكلام الله أشرف الكلم يتميز عن سائر الكلام بأنه القول الفصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ووجه الإنسان أشرف جزء فيه يتميز عن بقية الأعضاء بما فيه من محاسن وما ركب فيه من عينين وحاجبين وشعر وأذنين وأنف وفم "فإذا أزيلت عنه تلك المحاسن ومحيت منه تلك الأجزاء فصار كخف البعير وحافر الفرس ، أو رد إلى الأدبار فجعل على هيئة القفا كان ذلك تشويها فظيعا للخلقة الحسنة ومثلة وفضيحة عظيمة توجب الغم والحسرة الشديدة" [2] .

وقد شرح شيخ زاده ما قاله الزمخشري عن الفاء في قوله تعالى : ﴿ **فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا** ﴾ من أنها قد تكون للسببية وقد تكون للتعقيب .. وبين أن لها على كلا الرأيين تفسيراً يؤكد التهديد ويقويه لأنها إذا كانت للسببية فالمعنى : أردنا طمسها فرددناها إلى الأدبار ؛ أي جعلنا الوجوه ناحية القفا، والقفا ناحية القدام .

● أما إذا كانت للتعقيب فالمعنى أنها تفيد حدوث العذاب مرتين : طمست الوجوه أولاً ثم أعقب ذلك بردها إلى الأدبار ، ويكون ذلك على سبيل التفصيل بعد الإجمال ، فإن رد الوجوه على هيئة الأدبار تفصيل للطمس المجمل كما في قوله تعالى : ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ**

(1) القاموس المحيط : (طمس) .

(2) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي 40/2 ط المكتبة الإسلامية ديار بكر – تركيا .

﴿ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (الأعراف : 4) "فإن تبييت البأس تفصيل للإهلاك المجمل" [1].

وطمس الوجوه وردها إلى أدبارها قد يكون على الحقيقة وما ذلك على الله بعزيز ، فقد أصاب الله أسلافهم قبل ذلك بالمسخ قردة وخنازير ، فليس طمس الوجوه بأصعب من ذلك قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ (المائدة : 60) وقال : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (الأعراف : 166) .

- وقد يكون الطمس معنوياً وهذا يحتمل أمرين :

الأول : الإشارة إلى أنهم سلبوا – لغوايتهم وعنادهم – ميزة ما في الوجوه من آلات الحس والإدراك كالسمع والبصر والعقل ، طمسس الله عليها ، فأعمى الأبصار عن الاعتبار ، وأصم الأسماع عن الإصغاء إلى الحق وردها من الهداية إلى الضلال . فهم كما حكى القرآن عنهم : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة : 18) وهم أيضاً ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف : 179) .

الثاني : أن يراد بالوجوه رؤساء اليهود ، فالطمس هنا بمعنى تغيير وجوههم بسلب وجاهتها وإقبالها وتجليلها بالصغار والإدبار حين أجلى بنو النضير وبنو قريظة وردوا إلى أدبارهم من حيث جاءوا من وهكذا فإن أسلوب القرآن الكريم تتفجر منه طاقات الإيحاء ثرة غزيرة ويستمر كنزه المعطاء مفتوحا لكل من فتح الله عليه.

6- حركة الوجه في النار:

في هذا المبحث نتتبع تأثير النار على وجوه الكافرين ، وكيف تعبر الوجوه عن حالة أصحابها عندما تلتقي مع النار ، كيف تفصح عن مشاعرهم وتبين مصيرهم والموقف الذي أدى بهم إلى هذا المصير .

إن النار في الآخرة تلفح الوجوه وتغشاها ، وتكب فيها الوجوه وتكبكب ويتقى بالوجوه سوء العذاب وتقلب في النار ، ويسحب أصحابها في النار على الوجوه .

أ. ففي قوله تعالى : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (المؤمنون : 104)

تأتي الآية في سياق المقابلة بين المؤمنين – وقد ثقلت موازينهم يوم القيامة ففازوا بالفلاح - وبين الكافرين وقد خفت موازينهم فخسروا أنفسهم وخلدوا في جهنم تلفحهم بلهيبها ، سفعت النار وجوههم وأحرقتهم فتركتهم كالحين "والكلوح أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن

[1] المرجع السابق : 40/2 .

الأسنان كما ترى الرؤوس المشوية" [1].

وقد خص الوجه باللفح - كما يقول أبو حيان في النهر الماد وفي البحر المحيط ، "لأنه أشرف ما في الإنسان ، والإنسان أحفظ له من الآفات من غيره من الأعضاء فإذا لفح الأشرف فما دونه ملفوح ، ولما ذكر إصابة النار للوجه ذكر الكلوح المختص ببعض أعضاء الوجه" [2].

إن صورة الوجه الكالح وقد احترق بهذه الطريقة البشعة صورة كريهة منفرة لكل من يراها ، أو يسمع عنها .. وإن حركة عضلات الوجه وهي تتقلص وجلده وهو يتشمر وشفتية وهما ترتفعان إلى أعلى أو تنخفضان إلى أسفل .. هذه الحركة تعطى صورة تنخلع لها القلوب رهبة وخوفاً .. ومن ثم يعاجل القرآن هؤلاء الكفار -بعد ذلك- بالسؤال التقريعي التوبيخي ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ (المؤمنون : 105) ولن ينفعهم بعد ذلك اعتذارهم بأنهم قد غلبتهم شقوتهم فضلوا عن طريق الهداية ، ولن تجدي توسلاتهم إلى رب العزة بأن يخرجهم من النار إلى الدنيا من جديد . فلطالما حُذِّرُوا في الدنيا من هذا المصير فكانوا يسخرون ويضحكون .. [3]

ب. وفي قوله تعالى : ﴿ **وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ (إبراهيم : 49-50) .

نرى المجرمين هنا مسوقين إلى جهنم قد قرن بعضهم إلى بعض مغللين في قيود مصفدة متسربلين بالقطران [4] الذي يساعد على اشتعال النار التي تتصاعد من أجسامهم إلى وجوههم حتى تغشاها وتغطيها .

وسواء أقرئت (وجوههم) بالرفع أو بالنصب فوردت الوجوه على النار من جميع جوانبها أو وردت النار عليها وأحاطت بها، فإنها في كلتا الحالتين مصطلية بالنار﴿ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ (براهيم : 51) .

إن صورة الكافر المقيد في الأصفاد المسربل بالقطران وقد اشتعلت النار في جسده حتى غطت وجهه جديرة بأن تكون بلاغاً وإنذاراً للناس ولكن لايتذكر ذلك إلا أرباب العقول ﴿ **هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ (إبراهيم : 52) .

والغرض البلاغي هنا هو الترهيب والتخويف، والتعبير بالمضارع في ﴿ **وتغشى** ﴾ لاستحضار الصورة.

---

(1) الكشاف : 204/3.

(2) البحر المحيط : 422/6 وكذلك النهو الماد 422/6 .

(3) راجع الآيات (105-111) من سورة المؤمنون .

(4) مما ذكره الزمخشري عن القطران: أنه يتحلب من شجر يسمى الأبهل يطبخ فتهنأ به الإبل الجربى ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلي به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص لتجتمع عليه الأربع " 1- لذع القطران وحرقته . 2- إسراع النار في جلودهم . 3- واللون الوحش . 4- ونتن الريح (انظر : الكشاف) : 567/2 .

ج. وهذه صورة أخرى لحركة الوجه مع النار تتجسد في هذا السؤال التهكمي الساخر في قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** ﴾

(الزمر : 24) .

"فالوجه وهو أعز موضع من ظاهر البدن وأشرفه" [1] - يقيه الإنسان – عادة- بكلتا يديه كي يحميه من أذى الحر والبرد والمطر والحجر وعدوان المعتدي ، وإنها لحركة لا إرادية من جميع البشر أن يرفعوا أيديهم أمام وجوههم عند إحساسهم بأي خطر يتهددهم ، هذا الوجه اليوم في الموقف المقلوب إنه مطالب بأن يكون هو الدرع وهو الوقاية من سوء العذاب ، لأن صاحبه قد ألقي في النار مغلول اليدين مسلسل القدمين مقمح الرأس لايستطيع الالتفات ، إن الوجه – الآن – في مواجهة مباشرة مع النار لايستطيع عضو آخر من أعضاء جسده حمايته أو وقايته ، وتكون المفارقة الساخرة هنا أن هذا الوجه العزيز على صاحبه الذي تعود الدفاع عنه بيديه ، لايجد صاحبه مايحول به بينه وبين النار ، قيتقي شدة العذاب بهذا الوجه، فأني تتحقق له هذه الوقاية ، وقد عبر الزمخشري عن ذلك بقوله : "إن الإنسان إذا لقي مخوفا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز الأعضاء عليه والذي يلقى في النار يلقي مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه" [2].

وقد اجتهد المفسرون في بلاغة التعبير بقوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ وأدلوا بتوجيهات بلاغية تدل على أن بلاغة القرآن رحيبة المجال ومعطاءة لكل متأمل على قدر فهمه وتأمله .

– فهذا الإسكندري صاحب **الانتصاف** يرى أن الأمر على سبيل المجاز التمثيلي [3] شبه حال من يلقي في النار ولايجد مايتقي به النار غير وجهه بحال من يتقيها بداية بوجهه وعبر عن ذلك بالاتقاء .

– أما شيخ زاده فيري أن في التعبير كناية وفيه أيضاً استعارة تخييلية [4] ففي التعبير كناية عن استحالة الاتقاء لأنه غير متصور أصلاً لأنه لايمكن للوجه أن يتقي النار وهو مصطل بها ..

(1) البحر المحيط : 441/5 .
(2) الكشاف : 4/ 125.
(3) الانتصاف – للإمام أحمد بن المنير الإسكندري = هامش على الكشاف : 125/4 .
(4) حاشية محي الدين شيخ زاده 201/4 والاستعارة التخييلية هي إثبات لازم المشبه به للمشبه وهي قرينة الاستعارة المكنية ، فقرينة المكنية دائما : استعارة تخييلية على مايرى الجمهور . فهما متلازمتان لاتوجد إحداهما بدون الأخرى إذ لابد للاستعارة من قرينة ، (انظر : أسرار البيان .د. علي

وهذا كالكناية عن عدم وجود العيب – مع إيهامه – في قول النابغة –

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم # بهن فلول من قِراع الكتائب

فإن ما في السيوف من فلول ليس عيباً بالمرة بل هو دليل البأس والقوة .

وأما الاستعارة التخييلية وهي المكنية أيضاً، فقد شبه الوجه بالترس الذي يتقي به وحذف المشبه به ودل عليه بالفعل (يتقي) على سبيل الاستعارة المكنية .

– لكن أبا حيان يحمل التعبير على الحقيقة [1] . وأنه بالفعل لم يجد حيلة يتقي بها النار غير وجهه حين ألقى في النار مغلولاً . ويري أن حمل التعبير على الحقيقة أبلغ لبيان كثرة ما يناله من العذاب وأن في هذا تدرجا في التوقي لأن الإنسان يتقي أولاً بجوارحه ويترقى في الوقاية إلى أن يجعل أشرف جوارحه وهو الوجه وسيلة التوقي .

وأبو حيان يعضد رأيه هذا باستحسان ابن عطية له ويقول الشاعر :

يَلْقَى السيوفَ بوجهه وبِنَحْرِهِ # ويقيمُ هامته مقام المِغْفَر

د. ومما يتصل بحركة الوجه في النار (تقلب الوجوه في النار) وذلك في قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا** ﴾ (الأحزاب : 66) .

وهو تعبير يحمل في الغالب على ظاهره،ولا يلعب الخيال دوراً بارزاً فيه غير أنه في تصوير الواقع يفوق كل خيال ، فهذه الوجوه الشريفة يقلبها سعير جهنم بشدة في اتجاهات مختلفة "كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فيترامى بها الغليان من جهة إلى جهة" [2]

والتعبير بالوجه مجاز عن تقليب الجسد كله ولكنه خص بالذكر تشفيا وسخرية منهم واستهزاء بهم لأنه الأشرف والأحسن ومحل الصباحة والوجاهة عند الإنسان .

وقد ساعدت الصياغة اللغوية على تهويل الصورة وتبشيعها لأن المضارع المضعف العين (تُقَلَّبُ) المبني للمفعول يوحي أولاً بشدة التقليب وثانياً بسلب إرادتهم فهم متقلبون بفعل السعير أو بزبانية جهنم، وهم لن تنفعهم صرخاتهم ولاينفعهم ندمهم على عصيانهم قائلين ﴿ **يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا** ﴾ ولن يجدي إلقاؤهم المسؤولية على سادتهم وكبرائهم وهو يتوسلون ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** ﴾ (الأحزاب : 67) .

هـ. ثم نأتي إلى صورة أبشع وأشنع لحركة الوجه مع النار ، وهي صورة السحب على الوجوه في النار لكل من أجرم في حق نفسه أو غيره ، فضل عن الحق في الدنيا وسعر في نيران جهنم في الآخرة ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ* يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ (القمر : 47-48) .

العماري ، مصر 1992م) .

(1) البحر المحيط : 7/ 424 .

(2) الكشاف : 562/3 .

ولقد رأينا في الدنيا صوراً من المسحولين في الشوارع والمسحوبين على وجوههم على أيدي خصومهم في السياسة أو العقيدة وقد اختلطت بالتراب وجوههم وتعثرت في حصى الأرض وأحجارها فشوهت سحناتها وكساها الدم فمحا معالمها، فكيف بمثل هذه الوجوه وقد سحبت على حصب جهنم وتلطخت بما انصهر فيها من أجساد وما سال فيها من قيح وصديد .

ولكن المثير للتهكم والسخرية بعد كل هذا أن يقال لهم ﴿ **ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ** ﴾ كأن كل هذا السحب والسحل والعذاب مجرد (مس) مما يصيب الناس في دنياهم كمس الحمى والألم .. وكأن هذا العذاب مما يذاق بالفم كالطعام على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن الكفار من يكب على وجهه في النار ومنهم من يُكَبْكَبُ فيها وقد ورد ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ (النمل : 90) ،وقوله تعالى : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون.وجنود إبليس أجمعون** ﴾ (الشعراء : 94-95)

ففي الآية الأولى مقابلة بينها وبين آية أخرى سابقة لها هي قوله تعالى : ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ** ﴾ وهذه المقابلة توضح المصير المنتظر لفريقين ، فريق قدم الحسنة وهي الإيمان فهو آمن من أي فزع ، وتنكير (فزع) للعموم والشمول لكل ما يفزع في الآخرة بدءاً من فزع البعث إلى النشور إلى الحشر إلى الحساب ..

وفريق آخر جاء بالسيئة وهي الكفر فجزاؤه من جنس عمله لأنه حين انكب هائماً على وجهه في الشرك والمعاصي والملذات . كب في النار على وجهه منكوساً على رأسه. والتعبير بـ (جاء) في الآيتين يستحضر في دنيا الناس صورة الفريقين يوم القيامة وقد حمل كل فريق معه دليل نجاته أو دليل إهانته ، والتعبير بالوجه – كما بينا في أكثر من موضع، مجاز مرسل علاقته الجزئية والوجه واجهة الإنسان فإذا كب في النار كان الجسم تبعا له .

وتبين الآية الثانية لنا أن من كانوا يتعبدونهم من دون الله أو يتوسلون بهم لن ينصروهم أو ينجوهم من عذاب جهنم ولن ينتصروا لأنفسهم يوم القيامة ﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ (الشعراء : 92-93) لأن هذه الآلهة نفسها ستلقي في جهنم مع من عبدها ومعهم كل جنود إبليس .. وقد عبر القرآن عن هذا المشهد بالفعل (كبكبوا) والكبكبة – كما يقول البيضاوي – "تكرير الكب لتكرير معناه،كأن من ألقي في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها" [1] .

كما أن التعبير بالماضي المسبوق بفاء الترتيب والتعقيب مع بنائه للمجهول (فكُبْكِبُوا) يفيد تحقق الوقوع مع سرعته كما يوحي بأن هناك قوة قاهرة تدفعهم كما يندفع القطيع من الذعر فيتساقط بعضه فوق بعض وقد عبر سيد قطب عن جانب من هذا المشهد المريع بقوله : "وإنك لتسمع من جرس اللفظ صوت دفعهم وسقوطهم بلا عناية وبلا نظام

(1) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للقاضي البيضاوي : 474/3 .

وصوت الدبدبة الناشىء من الكبكبة كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف ، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه" [1].

و. وأخيراً يأتي الوسم بالنار على الأنف في قوله تعالى ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾ (القلم : 16) . لصنف من الناس أمر الله رسوله (والأمر للمؤمنين أيضاً) بألا يطيعه ولا يسير في ركابه ، وقبل أن يسمه الله على أنفه بالنار في الآخرة وسمه في الدنيا بمجموعة من الصفات الذميمة التي تفسد المجتمع المسلم فهو كثير الحلف وهذا دليل على كذبه وهو مهين حقير الرأي، يمشي بين الناس بالنميمة ، مناع للخير معتد على غيره شديد الظلم غليظ الطبع شرير قال تعالى في وصفه : ﴿ **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ** ﴾ (القلم : 10-15) .

وصاحب هذه الصفات في الدنيا يسمه الله في الآخرة على أنفه بميسم الذل حيث يكوي بالنار على أظهر شيء في وجهه وعلى رمز الأنفة والجبروت وهو الأنف وفي هذا كناية عن العار الذي يلزمه ولايفارقه فكل من يرى شخصاً متصفاً بهذه الصفات في دنيا الناس تبرز أمام ناظريه صورة هذا العتل الزنيم وهو راغم الأنف ذليل مشوه الوجه وهي صورة تبعث على الضحك والسخرية بسبب المفارقة المفاجئة بين الصورتين ﴿ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (التوبة : 79) .

وبمعاودة النظر في بلاغة تلك الصورة الساخرة لهذا الصنف من البشر نرى أن القرآن الكريم يستخدم لذلك جملة قصيرة هي ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾ ولكن كل جزئية فيها تشي بهذه السخرية اللاذعة وتجسمها وتضخمها . فالسين – تدل على قرب وقوع الفعل وفي هذا طمأنة للرسول بأن الله سينتصر له من هذا الباغي عما قريب [2] . كما يدل قرب وقوع الحدث على التهديد والتخويف لهذا الصنف من البشر كي لا يتمادي في الطغيان والاستكبار. والتعبير بضمير الغائب في (سنسمه) للاحتقار .

والتعبير بالوسم بدلا من الكي يستحضر الصورة الدائمة المستمرة للحيوان المكوي ، لأن الوسم – كما يقول صاحب القاموس المحيط – هو أثر الكي ، فقد يذهب الكي بآلامه المحرقة، ولكن يبقى الوسم علامة مستمرة على أن هذا قد تعرض للكي يوما ما، فيستمر إذلاله ما بقي هذا الوسم . إن الكي عقاب بدني ولكن الوسم إذلال نفسي يتناسب تناسباً عكسياً مع ما عرف عن صاحبه من علو واستكبار .

والتعبير بـ (على) بدلا من (في) بما يفيده لفظ على من العلو والتمكن يوحي بأن هذا الوسم سيكون في أعلى الأنف بحيث يراه كل ناظر فيزيد ذلك من فضيحته وإذلاله .

(1) مشاهد القيامة في القرآن – سيد قطب 114 ط دار المعرف ، مصر .
(2) ذكر أن أنف الوليد أصابته جراحة في بدر فبقي أثرها : انظر تفسير البيضاوي 528/4 .

"وفي استعارة الخرطوم مكان الأنف استهانة واستخفاف لأن حقيقة الخرطوم للفيل" [1] وقد درج العرب على أن الأنف رمز العزة والسيادة كما يقول حسان في مدح الغساسنة :-

بِيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابُهم # شُمُّ الأنوفِ من الطراز الأول [2]

واشتقوا منه الأنفة فقالوا في المدح (حَمِيُّ الأنفِ شامخُ العِرْنِين) ، وقالوا في الذليل : "جَدِعَ أنفُه ورَغِمَ أنفه" [3] .

فإذا عبر عنه بالخرطوم استدعى ذلك التعبير صورة الفيل الضخم وذلك بدوره يستدعي صورة هذا المغرور المتكبر المنتفخ في الدنيا وبالمقارنة بين الصورتين تبلغ السخرية منه مداها الذي لا يحد ... وتظل صورته الزرية شاخصة كلما تلي القرآن فتفعل فعلها في النفوس . وبذلك تؤدي البلاغة القرآنية هدفها الديني بالإضافة إلى هدفها الجمالي الفني .

7- غلبة دلالة الوجه على الذات :

رأينا في تحليل الآيات السابقة أن القرآن الكريم قد عبر بالوجه عن الجسم لأنه أشرف الأعضاء كلها وأن الوجه استخدم على سبيل المجاز بعلاقة الجزئية ، ونريد أن نؤكد أن هذا المعنى أكثر بروزاً عند ما يتعلق الأمر بحركة الذات الإنسانية بشقيها المادي والمعنوي،وفي الآيات الآتية يرد ذكر الوجه وحركته لا للدلالة على ذلك الجزء المعروف من الجسد بل للدلالة على الذات بأكملها ، وقد سبقت في مقدمة هذا البحث رواية الزمخشري في ذلك أن المساكين من أهل مكة يقولون "أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان" [4] .

ويورد في ذلك قول الله تعالى : ﴿ **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ (يوسف : 9) .

والآن إلى المزيد من تلك الآيات لنتبين وجه البلاغة فيها :-

1. يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** ﴾ (الأنعام : 79) .

إن الوجه هنا ليس مقصوداً بذاته بل المقصود حركة التوجه الكلي بالجسم والروح ، بالنية والضمير والجوارح .. وبمعنى أشمل أن تكون كل الحركات والسكنات والأعمال والعبادات مقصوداً بها خالق السموات والأرض . يقول القرطبي في تفسير ذلك "أي قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل وحده وذكر الوجه لأنه أظهر ما يعرف به صاحبه" [5] .

(1) البحر المحيط : 311/8 .
(2) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص 180 ط - دار صادر بيروت – لبنان .
(3) البحر المحيط : 311/8 .
(4) الكشاف : 46/4 ط الحلبي مصر 1972م .
(5) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

ويربط الطاهر بن عاشور – في هذه الآية بين النية والقصد والضمير وما يعتري الوجه من تغيرات فيشير إلى التغيرات التي تلحق الوجه عند توجهه لجهة ما بأن (القاصد إلى مكان ما بوجهه تحصل هيئة في وجهه وهي هيئة العزم وتحديق النظر .. فمعنى وجهت وجهي : صرفته وأدرته ، ويري أن هذا الفعل من إبراهيم عليه والسلام جاء على جهة التمثيل حيث شبهت حالة إعراضه عن الأصنام المعبر عنها بقوله ﴿ **إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئاً وقصده وانصرف عن غيره .

ويلمح ابن عاشور كذلك إلى بلاغة تعدية الفعل (وجهت) هنا باللام – مع أنه غالباً ما يتعدى بإلى – فيقول إن التعدية باللام تحسن إذا كان الشيء المقصود مراعى إرضاؤه وطاعته من مثل قولك توجهت للحبيب ، فاختير تعديته باللام في الآية الكريمة لأن في هذا التوجه إرضاءه وطاعته [1] .

2. وفي قوله تعالى: ﴿ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (يونس : 105) ، وقوله تعالى ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ (الروم : 30) .

تفسر إقامة الوجه خالصاً للدين على معنى تعديل الوجه جهة الدين وعدم الالتفات عنه يميناً ولاشمالا وذلك على سبيل التمثيل ومثّل من توجه بكليته للدين واستقام عليه واهتم بأسبابه بمن اهتم بشيء فعقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقدم له وجهه مقبلاً عليه وهذه الاستعارة التمثيلية – كما يرى ابن عاشور – كناية عن توجيه النفس بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها [2] وهو تفسير ينسجم مع ما قلناه في البداية بأن الوجه هنا – وفي مثل ذلك – قصد به الذات بأكملها .

3. وقريب من هذا إسلام الوجه خالصا لله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة : 112) .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ (النساء : 125) ، وقوله تعالى :

﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ (آل عمران : 20) .

فإن إسلام الوجه يعني التسليم المطلق لأوامر الله وهو كناية عن تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية ، وقد أطلق الوجه هنا على الذات كما أطلق على الذات الإلهية - ولله المثل الأعلى – في قوله تعالى :

2464/4 ط – دار الريان للتراث – القاهرة .

(1) انظر : تفسير التحرير والتنوير : المجلد : 7 القسم الثاني ص 223-224 .

(2) السابق : 303/11 .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن : 27) .

القسم الثاني : نظائر الحركات PARAKINETICS :

وفي هذا القسم نتناول بالتحليل البلاغي الآيات التي ورد فيها ذكر الوجه ولم يقم بالحركة أو لم تقع عليه الحركة ولكن اعترته بعض التغيرات الناتجة عن بعض المواقف التي أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث ويتمثل ذلك في المواضع الآتية :

1- بياض الوجه وسواده :

ورد الحديث عن بياض الوجه وسواده في عدة آيات منها ما يبين حالة المؤمنين والكافرين في الآخرة وقد غلب على هذا الموقف أسلوب المقابلة ومنها ما يشير إلى مواقف تعترى الكفار في الدنيا فيظهر أثر هذه المواقف على وجوهم .

أ. **ففي الحالة الأولى** : يرد قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (آل عمران : 106-107) .

ففي الآيتين مقابلة واضحة بين حال المؤمنين في الآخرة وقد أشرقت وجوههم بنور الإيمان واطمأنت نفوسهم إلى أنهم – في هذا اليوم – خالدون في رحمة الله ، وحال الكافرين وقد اكتست وجوههم بالسواد الناتج من ظلام نفوسهم وكدرة أرواحهم. إن بياض الوجوه وسوادها في هذا اليوم أثر للحالة النفسية التي تعتري كل فريق ؛ فالوضاءة والنور للوجوه المؤمنة بسبب مابشروا به من الخلود في رحمة الله .. والسواد والإظلام للوجوه الكافرة بسبب التقريع والتهديد بسوء المصير ﴿ **أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ .

وقد ألمح أبو حيان إلى تأثر الوجوه بالحالة النفسية حين أشار إلى قول العرب "لمن نال أمنيته : ابيض وجهه ، ولمن جاء خائباً : جاء مسود الوجه" [1] كما يؤكد شيخ زاده أن "البياض كناية عن الفرح والسرور ، وأن السواد كناية عن الكآبة والحزن والغم" [2] .

وهذا لايمنع كونهما على الحقيقة إذ يتأثر لون الوجه (فسيولوجيا) بالعوامل النفسية حيث صفرة الفرق وحمرة الخجل وإشراقة السرور .. إلخ .

أما لماذا بدأ بالبياض في الآية الكريمة ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ** ﴾ وعند التفصيل بـ (أما) عكس فبدأ بالسواد وختم بالبياض؟ فإن لأبي حيان تعليلا لطيفا ينسجم وبلاغة القرآن وهو أنه بدأ بالبياض لشرفه ولأنه الحالة المثلى، وعند التفصيل ابتدىء بالذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم ولمجاورته لقوله تعالى ﴿ **وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ ولكي يكون الابتداء في صدر الآية بالمؤمنين "ويكون الاختتام بحكمهم فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئا يسر الطبع

(1) البحر المحيط : 22/3 .
(2) حاشية شيخ زاده : 659/1 .

ويشرح الصدر" [1] وهذه الطريقة في التعبير تسمى في علم البديع باللف والنشر غير المرتب حيث لفهما معاً في صدر الآية ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ فلما نشرهما جاء بهما من غير ترتيب كما رأينا .. والغرض البلاغي من ذلك - والله أعلم – تغليب رحمة الله سبحانه وتعالى على غضبه حيث افتتح الحديث بأصحاب الوجوه البيضاء فأوحى ذلك بالبشر والسماحة والرحمة وختم الحديث بجزائهم وهو الخلود في رحمة الله فغلب البدء والختام على ما بينهما وهو الحديث عمن اسودت وجوههم وجزاؤهم .

ويبقى أن نشير إلى أن التعبير بالمضارع (تبيض وتسود) يستحضر الصورة أمامنا ويستنزلها من الآخرة في غمضة عين لتنتصب ماثلة أمامنا في دنيا الناس فيزيد ذلك من الترغيب والترهيب ويتحقق الهدف الديني من البلاغة القرآنية بالإضافة إلى الجمال الفني .

كما يرد في الحالة الأولى أيضاً قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (الزمر : 60-61) .

فالذين كذبوا على الله في الدنيا ونسبوا إليه الشريك والصاحب والولد ووصفوه بما لا يليق بجلاله تراهم يوم القيامة ﴿ **وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ إما على الحقيقة – وهو الأرجح – [2] حيث يكفهر وجه الإنسان ويربد حين يتضح كذبه ويفتضح أمره ، أو على المجاز كناية عن الكآبة والحزن ..

ويخبر القرآن أن مصير هؤلاء سيكون جهنم ﴿ **أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ وذلك في مقابل من لم يمسهم سوء ولم يصبهم حزن فلم تسود وجوههم لأنهم حين اتقوا الله في الدنيا نجاهم من هذا المصير .

أما لماذا عبر باسم المفعول في ﴿ **وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ** ﴾ مع أن اسم المفعول يأخذ حكم الفعل الماضي – إذ يدل على وقوع الفعل على المفعول في الزمن الماضي – ويوم القيامة مستقبل لم يأت بعد ؟ فإن ذلك للدلالة على تحقق الوقوع ، وقد درج القرآن على ذلك "إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المتوعد بها" [3] .

---

(1) البحر المحيط : 22/3.

(2) قلنا بالأرجح اقتناعا بالرأي القائل بأنه متى أمكن حمل اللفظ على حقيقته ولم يوجد دليل يصرفه إلى المجاز فالحقيقة أولى وخاصة أن علم النفس الحديث يربط بين التغيرات الفسيولوجية التي تصيب الجسم والتغييرات السيكولوجية للإنسان .

(3) الإكسير في علم التفسير : للطوفي – تحقيق د. عبد القادر حسين ص 145 المطبعة النموذجية .

ب. **وفي الحالة الثانية** : وهي اسوداد الوجه في الدنيا فإن ذلك قد اعترى فريقاً من الكفار كانوا ينسبون إلى الله البنات ويزعمون أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث . وقد ورد ذلك في قوله تعالى :

﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (النحل : 75-59) .

إن القرآن الكريم – على سبيل مجاراة الخصم في ادعائه وجهله - يسخر منهم ويبين لهم شطط تفكيرهم وقلة حيائهم حين ارتضوا أن يجعلوا لله شر الجزأين (في نظرهم) وهو البنات بينما اختصوا أنفسهم بالذكور فهو يفحمهم بالحجة إذ يذكرهم بما يحدث لأحدهم حين يبشر بالأنثى : إن وجه يربد ويسود وإن قلبه ليمتلىء بالهم والغم ، وإن الخجل والشعور بالعار ليدفعانه دفعاً إلى التواري عن أعين الناس والوقوع في الحيرة والاضطراب أيحتفظ بالأنثى ويعيش ذليلا بين قومه أم يبادر فيدفنها في التراب ويتخلص من عارها ؟ فكيف مع كل هذا تحكمون لله بالبنات ولكم بالذكور ﴿ **أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ ولقد كان بعضهم يهجر بيته إذا وضعت إمرأته أنثى .

فترضيه زوجته وتناشده العودة قائلة :

ما لأبي حمزةَ لايأتينا # يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبانَ ألا نلدَ البنينا # ليس لنا من أمْرنا ماشِينَا
وإنما نأخذ ما أُعطينا [1]

ونعود إلى بلاغة التعبير بالوجه حيث يظل طول النهار مسوداً ويظل قلبه كظيما مملوءاً بالحزن والغم .. فالتعبير بـ (ظل) – التي تفيد قيام صفة خبرها باسمها نهاراً – يوحي بأن البشرى جاءته في أول النهار حيث إن معظم الولادات تتم في الليل ولايذاع الخبر – عادة إلا في الصباح ، ومن ثم فإن نهاره من بدايته إلى نهايته مغلف بالحزن الذي يكسو وجهه بالسواد، فاسوداد الوجه تعبير عن العبوس والغم الذي لحقة بولادة الأنثى .

والتعبير بالبشرى عن خبر ولادة الأنثى – وهو خبر سيء لهم – والبشارة لاتكون إلا للإخبار بما يسر.. هذا التعبير "يحدث تناقضا يثير في النفوس الطرافة أو العجب ، فإن الذهن حين يرد عليه لفظ البشرى، يوطن خياله على مسار معين هو صورة سرور وفرح قادم ولكنه

[1] وردت الأبيات في الكشاف : 243/4 وإن كنا نشك في صحتها ونرجح أنها مصنوعة من قبل بعض الوعاظ أو المفسرين – ورواية القرآن الكريم في تصوير ذلك أصدق وأبلغ .

يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه وهو الألم والحزن" [1].

وهذه طريقة القرآن في السخرية من أعداء الله حيث تنفذ السخرية إلى أعماق نفوسهم فتزيدهم حيرة وألما وتجعلهم موضع السخرية من الآخرين .

كما أن التعبير بـ (كظيم) التي تفيد امتلاء القلب بالحزن تعطي نوعاً من التقابل المعنوي بين ما يكنه قلبه من الهم ومايظهر على وجهه من السواد .

2- نضرة الوجه ونعومته :

يرد الحديث عن نضرة الوجه ونعومته وإشراقه واستبشاره في سياق وصف القرآن الكريم لأصحاب الجنة وما يلقون فيها من نعيم وتكريم يظهر أثره على الوجوه وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ** ﴾ (القيامة : 22-23) .
- ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ (عبس : 38-39) .
- ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ** ﴾ (الغاشية : 8-9) .
- ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴾ (المطففين : 24) .

ولقد سبق أن رأينا وجوه الكافرين في النار وما يصيبها من لفح وكب وكبكبة ووسم وتقليب وسحب .. ولكن وجوه المؤمنين في الجنة (ناضرة) تكسوها النضرة ويعلوها الرونق والحسن ثم إنها ﴿ **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ مستمتعة بالنظر إلى وجهه الكريم (ونظر الوجوه إلى الله للتوقع والرجاء كقول القائل:

وإذا نظرتُ إليك مِنْ مَلِكٍ # والبحرُدونك زِدْتَنِي نِعَمَا [2]

وهذه الوجوه (مسفرة) يشع منها الضياء كإسفار الصبح بعد الظلام ، وهي ﴿ **ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ لأن كل ما حولها من النعيم والتكريم يدعو إلى السرور والبشر والتفاؤل .

وأخيراً فإنك في الآخرة لن تخطىء في التعرف على هذا الفريق المؤمن في الجنة،فهم أبرار مطهرون متكئون على الأرائك, تراهم فتعرف نضرة النعيم وبهجة التنعم وماءه ورونقه في وجوههم .. وإضافة (نضرة) إلى (النعيم) إضافة السببية فالمضاف إليه وهو (النعيم) سبب في المضاف وهو (النضرة) .

ونلاحظ أن أوصاف الوجوه السابقة وردت كلها بصيغة اسم الفاعل (ناضرة - ناظرة – مسفرة – ضاحكة – مستبشرة – ناعمة - راضية) ولم ترد بصيغة الفعل ، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن اسم الفاعل يدل على الثبوت والدوام بينما يدل الفعل على التجدد

[1] التصوير الساخر في القرآن الكريم ، د. عبد الحليم حفني / 225 ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة - 1992م .

[2] البحر المحيط : 389/8 .

والانتقال ، وبما أن نعيم الجنة خالد ودائم ، فقد ناسب التعبير باسم الفاعل – وقد أشار عبد القاهر إلى ذلك وهو يوضح الفرق بين قوله تعالى : ﴿ **وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** ﴾ وقولنا (وكلبهم يبسط ذراعيه بالوصيد) فذكر "إن أحداً لا يشك في أن الفعل (يبسط) لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت – بينما الاسم يقتضي ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا – ثم يؤكد ذلك بأنه لافرق بين ﴿ **وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ** ﴾ و(كلبهم واحد) في أنك لا تثبت مزاولة ولا تجعل الكلب يفعل شيئا ، بل تثبته بصفة هو عليها – فالغرض إذن هو تأدية هيئة الكلب" [1].

ويمكن أن نضيف إلى ذلك ملمحا آخر للتعبير باسم الفاعل وهو أن المؤمنين الذين وصفت وجوههم بهذه الأوصاف (ناضرة ، ناظرة .. إلخ) كأنهم فاعلون لها بأنفسهم لما فعلوا في الدنيا ما يستوجبها في الآخرة .

كما أن مما يلفت النظر أيضا أن تلك الأوصاف الجميلة وردت كلها متقابلة مع أوصاف وجوه الكافرين في الآيات اللاحقة أو السابقة فوجوه المؤمنين (ناضرة – مسفرة – ضاحكة – مستبشرة – ناعمة – راضية) .

أما وجوه الكافرين فهي (باسرة عليها غبرة – ترهقها قترة – خاشعة – عاملة – ناصبة) ، وسوف نولي هذه النقطة عناية خاصة عند الحديث عن الوجوه الباسرة العابسة المنكرة) .

3- سَوْءُ الوجوه :

ورد الحديث عن سَوْءُ الوجوه بمعنى كلوحها وكسوفها وظهور الكآبة عليها في موضعين من القرآن الكريم :

أ. **الموضع الأول** : في قوله تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا** ﴾ (الإسراء : 7) .

وقصة بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض مرتين معروفة ومعروضة في كتب التفاسير ، والحديث في هذه الآية عن الإفساد الثاني ، وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بأنه إذا حدث منهم ذلك فسيبعث عليهم عباداً أشد بأساً منهم ليسوءوا وجوههم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيراً.فجواب إذا في الآية محذوف دل عليه جواب إذا الأولى [2] .

والذي يهمنا هنا هو التعبير بجملة (ليسوءوا وجوهكم) فإن الوجوه هنا كما قلنا في

---

(1) انظر : دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني – ص 175 تحقيق محمود شاكر ط : الخانجي – مصر .

(2) (إذا) الأولى : هي الواردة في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد ﴾ (الإسراء : 5) .

أكثر من موضع يحتمل أن تكون على الحقيقة،لأن آثار الأعراض النفسية في القلب تظهر على الوجه.أو على المجاز إشارة إلى الذوات أو إلى وجهاء القوم وسادتهم .

ولفظ (السوء) كما يشير الزمخشري في أساس البلاغة : (اسم جامع لكل آفة وداء) وذلك يعني أن وجوه بني إسرائيل قد اعتراها أو سيعتريها الخزي والعار والكآبة والارتداد والكلوح وماشئت من الآفات والأدواء .

ب. **والموضع الثاني** : ورد في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ** ﴾ (الملك : 27) .

والفهم العام لسياق الآية يظهر وقعها على النفوس ، ومقدار ماتزرعه في القلوب من هلع وخوف من لقاء هذا اليوم حتى إن بعض الزهاد تلاها في أول الليل في صلاته ، "فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نودي لصلاة الفجر" [1] .

- ففي آية سابقة يتساءل الكفار في سخرية واستهزاء ﴿ **مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ وحين تحقق هذا الوعد ورأوه (زلفة) أي قريباً وواقعاً لا محالة ، سيئت وجوههم "بان عليها الكسوف والقترة وكلحوا كما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب" [2] وقيل لهم -في سخرية لاذعة تقابل سؤالهم الساخر- ﴿ **هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ** ﴾ .

إن التعبير بـ (سيئت) بالبناء للمفعول يدل على أن هناك قوة قاهرة أثرت عليهم فظهر السوء في وجوههم دون إرادتهم وعلى كره منهم ، ومجيء الفعل بالماضي : لتحقق الوقوع وهذه الطريقة القرآنية في عرض ما سيكون كأنه كائن بالفعل "تتكرر في القرآن الكريم لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية توقف المكذب وجهاً لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه" [3]

4- غَبَرَةُ الوجوه ورَهَقُهَا وقَتَرُهَا وَذِلَّتُهَا :

بالبحث عن المعنى المعجمي لمفردات (غبر – رهق – قتر) وجد أن مادة (غبر) تدور حول التراب والغبار ومن الغبار اشتق اسم (الغَبَرَة) وهو ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه .

أما الرَّهَقُ : فهو الدنو من الشيء ورهقه : غشيه ، وصبي مراهق : مدان للحلم،والإرهاق : (أن تحمل الإنسان على ما لا يطيقه) .

والقَتَرُ : سواد كالدخان ، وقتار الشواء : دخانه ، وقتر الشواء : هيج الغبار ، والقترة :

(1) الكشاف : 583/4 .
(2) المرجع السابق : 58/4 .
(3) في ظلال القرآن : 3647/6 .

شبه دخان يغشي الوجه من الكذب ، وبوجهه قتر وقترة : هو ما يغشاه من غبرة الكرب والموت [1].

وبوضع هذه المفردات في تراكيها القرآنية، ووضع التراكيب في سياقها من الآيات : نرى أن قوله تعالى :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ (عبس : 40 – 41) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (يونس : 27) .

نرى أن تلك الآيات إنما تأتي في وصف أحوال الكافرين يوم القيامة وما يلقون من عنت وعذاب يظهر أثره على وجوههم، في مقابل أحوال المؤمنين وما يوهبون من تكريم ونعيم ينعكس على وجوههم .

فالكفار في سورة (عبس) – من هول الصاخة التي يفر المرء فيها من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه _ تكسو الغبرة وجوههم بسبب الغم الذي يتملكهم وترهق القترة – التي هي سواد كالدخان – محياهم فتحيله إلى شيء كريه مقرز مثير للسخرية "ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت. وكأن الله – عز وجل – يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور إلى الكفر" [2] ،كل ذلك في مقابل وجوه المؤمنين المسفرة الضاحكة المستبشرة .

أما الكفار في سورة (يونس) : فهم الذين كسبوا السيئات في الدنيا ، والتعبير بالكسب هنا يوحي بمسؤوليتهم المباشرة عن هذه السيئات ، لأنهم كسبوها بأنفسهم ولذلك عاجلهم القرآن بالحكم العادل (جزاء سيئة بمثلها) ، ومن ثم فإن ما يصيبهم من الكرب والرعب في هذا اليوم يظهر أثره الحسي على وجوههم فتراها مرهقة بالقتر والذلة والانكسار،وتبدو كأنها ملطخة بقطع من ظلام ليل حالك السواد . وهذا السواد الحسي مناظر للسواد المعنوي المستتر في نفوسهم . وفي هذا اليوم لن يعصمهم من عذاب الله عاصم فهم في النار خالدون .. وفي المقابل ترى المؤمنين الذين أحسنوا في الدنيا (ولم يكذبوا على الله كالكفار) تراهم أصحاب وجوه بيضاء مشرقة لايرهقها القتر ولا تبدو فيها الذلة .. لأنهم أحسنوا العمل في الدنيا فكانت الحسنى – وهي الجنة – جزاءهم ثم كانت (الزيادة) فوق ذلك وهي التنعم برؤية وجهه تعالى .

5- الوجوه الباسِرَةُ والعابِسَةُ والمُنْكَرة :

[1] انظر في ذلك : أساس البلاغة للزمخشري، والقاموس المحيط، ومفردات غريب القرآن .
[2] الكشاف : 706/4

وهذه طائفة أخرى من أوصاف الوجوه في القرآن الكريم وردت في قوله تعالى:

أ. ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (القيامة : 24-25) .

ب. ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (المدثر : 22) .

ج. ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس : 1-2) .

د. ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحج : 72) .

أ. ففي سورة القيامة وصفت وجوه الكفار بأنها ستكون في هذه اليوم (باسرة) .

وتشير المعاجم إلى أن مادة (بسر) يمكن أن تعني : طلب الشيء قبل وقته، فيقال : بَسَرَ الدَّيْنَ : تقاضاه قبل محلّه، وأَبْسَرَ السِّقَاء : شرب منه قبل أن يروب مافيه، وهي تعني أيضاً : الكلوحة أي شدة العبوس والتقطيب ، وتغير اللون ، ولا تبتعد تلك المعاني عن وصف وجوه الكفار بها في الآية الكريمة إذ تفيد هنا أنهم عندما عرفوا مصيرهم حيث ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ صارت وجوههم شديدة العبوس كالحة مقطبة ، وهي بهذه الصفات تعبر أصدق تعبير عن حالة البأس الذي اعتراهم والخوف الذي تملك قلوبهم من توقع (فاقرة) أي داهية عظيمة تكسر فقار ظهورهم .. وكل هذا قبل أوان دخولهم الفعلي إلى النار مما يتناسب مع المعنى اللغوي لمادة (بسر) .

وفي هذه إشارة إلى أن ماسيصيبهم بعد ذلك أشد وأنكى.ولاشك أن مما يزيد التأثير في النفوس – في الدنيا – أن توضع صورة الكفار في مقابل صورة المؤمنين أصحاب الوجوه (الناضرة) المتلذذة بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وأسلوب القرآن بهذه الطريقة ينقل الصورة بوجهيها المتقابلين إلى المتلقي على امتداد الزمان واتساع المكان في الدنيا حتى لايعذر أحد يوم القيامة و﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء : 165) .

ب. وفي سورة المدثر : يأتي لفظ (عبس وبسر) وصفا لوجه الوليد ابن المغيرة (وقصته مع سادة قريش بشأن القرآن معروفة) .

وقد سجل القرآن موقفة من الرسول ﷺ ومن القرآن بتفصيل دقيق إذ تابعه لحظة بلحظة ورصده وهو غارق في التفكير والتقدير ورسمه وهو ينظر ويقلب الأمر على وجوهه .. ثم سلط الأضواء على وجهه المتأثر بالموقف ثم لحظة نكوصه عن رأيه السابق حين أدبر واستكبر وقال إن هذا إلا سحر يؤثر .. إلخ .

ونعود إلى وجه الوليد فهو (عابس وباسر) ومقطب وكالح من طول ما أجهد صاحبه نفسه في النظر والتفكير والتقدير للخروج من المأزق الذي وضعه فيه أصحابه حين تكاثروا عليه يقودهم أبو جهل كي يقول في القرآن قولاً يرضيهم ، فتقطيب الوجه وكلوحه وتغير ملامحه

تعبير بلغة الوجه عن تلك الحالة النفسية والصراع العنيف بين الثبات على رأيه الأول في القرآن وهو (إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة .. إلخ) أو العدول عنه إلى النقيض الذي يرضي سادة قريش .

ج. وفي سورة عبس : يأتي وصف الوجه بالعبوس في الاتجاه غير المتوقع إذ يأتي وصفاً لوجه الرسول ﷺ وهنا يكمن سر من أسرار الإعجاز القرآني وهو أنه ليس كما يزعم الزاعمون من صنع محمد بل هو وحي يوحى، فلم يستثن هذا الوحي محمداً من وصف وجهه بالعبوس في معرض عتاب لاذع له لأنه عبس في وجه أعمى وأعرض عن الاستماع إليه مفضلا الاستمرار في الحديث إلى بعض صناديد قريش [1] .. ولو كان القرآن من صنع محمد لأعفى نفسه من هذا العتاب .

لقد عبس الرسول ﷺ في وجه الأعمى وأعرض عنه، واستمر في الحديث مع هذا الوفد رجاء أن يسلموا فيسلم بإسلامهم خلق كثير ، فعاتبه الله – سبحانه وتعالى – على ذلك عتابا شديدا لأن مافعله يوهم في ظاهره أن محمداً يحابي الأغنياء ويهمل الفقراء ولايليق هذا بالنبي بالإضافة إلى أن الأعمى أولى من غيره بالترفق والرعاية ..

ومن هنا جاء التعبير في بداية السورة بصيغة الغيبة (عبس وتولى) بدلاً من صيغة الخطاب (عبست وتوليت) للإشعار – كما يقول شيخ زاده – (بأن العابس والمتولي شخص آخر غير المخاطب بالوحي وأنه يُشْكَى إلى المخاطب (ﷺ) من فعله وذلك يدل على أن ذلك الفعل منكر لايتصور وقوعه ممن جبل على خلق عظيم وبعث رحمة للعالمين وإنما المتصور أن يقع ذلك من غيره .

أما العدول بعد ذلك إلى صيغة المخاطب في ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى** ﴾ فلمزيد من الإنكار والتوبيخ [2] .

ورغم أن عبوس وجه الرسول ﷺ إنما حدث كرد فعل طبيعي للغريزة الإنسانية التي يستجيب الوجه فيها للمشاعر النفسية التي تعتري البشر جميعاً حينما يقاطع حديثهم أحد ، وخاصة إذا كان المتحدث إليه ذا شأن -كصناديد قريش في حالة الرسول وكان المقاطع ليس في حاجة ملحة إلى المقاطعة – كما في حالة ابن أم مكتوم – أقول : رغم ذلك فإنه الله – سبحانه – عاتب رسوله هذا العتاب الشديد كنوع من التأديب الذي يسمو بنفس الرسول ويرتقي بها إلى آفاق أعلى من طبائع البشر حتى تتحقق فيه القدوة ويتجسد المثال . وصدق الله إذ يقول : ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ**

(1) كان من هولاء : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والأعمى هو : ابن أم مكتوم (عبدالله) .

(2) انظر في ذلك :حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: 620/4 .

كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : 21) .

هذا بالإضافة إلى حكمة أخرى من هذا العتاب وهي أن الله ينبه الرسول وينبهنا إلى رفعة مكانة هؤلاء الضعفاء – أمثال ابن أم مكتوم – بسبب قوة إيمانهم ، فقد أمره الله في آية أخرى بالصبر عليهم قائلاً : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (سورة الكهف : 28) .

د. وفي سورة الحج : يتم التعبير عن تغير الوجه بلفظ جديد هو (المنكر) ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ** ﴾ (الحج : 72) .

وقد فسر المنكر هنا بما يظهر على وجوه الكافرين من تجهم وبسور وكلوحة نتيجة الغضب الشديد والحنق على المسلمين الذين يتلون كتاب الله .

إن القلب البشري إذا امتلأ بمشاعر الكراهية والغيظ وتشبع برغبة عدوانية في البطش والأذى – كما في حالة الكفار هنا – ظهر أثر ذلك على الوجه بما سمى هنا ب (المنكر) وهو اسم مفعول بمعنى الإنكار "وقد آثر القرآن الكريم التعبير باسم المفعول هنا على التعبير بالمصدر لأن المصدر كما هو عروف يدل على الحدث فقط، بينما اسم المفعول يدل على الحدث والذات وفي ذلك دلالة على معرفة عين الشيء المنكر وليس مجرد الإنكار .. "[1] .

ولقد فضحت وجوه الكافرين – بظهور المنكر فيها – ما تمتلىء به صدورهم من غضب وغيظ على المؤمنين لا يلبث أن يتحول إلى سطو وبطش بهم ومن ثم قوبلت هذه الروح العدوانية الشريرة بما هو أشر منها وهو الوعيد والتهديد بالنار وبئس المصير ﴿ **قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ (الحج : 72) .

6- الوجوه العَانِيَة والخاشعة والناصِبَة :

ومما يدخل في سياق نظائر الحركات الخاصة بالوجه ، ما يظهر على الوجوه من علامات الذلة والخضوع والخشوع والشقاء والنصب وذلك عندما يتعرض أصحابها لمواقف محبطة أو مخيبة للآمال ، أو يقعون تحت ضغوط القهر والتعذيب والإرهاق ، وهذا أمر مشاهد في الدنيا لاتخطئه عين الخبير .

ولكن الأمر في الآخرة أشد وأقسى ، وخاصة على الكفار والعصاة الذين طالما حذروا من الحشر والعرض والحساب فلم يأبهوا ، حتي إذا ووجهوا بذلك أسقط في أيديهم وظهرت هذه العلامات المذكورة على وجوههم – ونجد هذا واضحاً في قوله تعالى: ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** ﴾ (طه : 111) .

وقوله تعالى : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ**

[1] انظر في ذلك : التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ، د. هنداوي : 94 .

﴾ (الغاشية : 1-3) .

فالعصاة في سورة طه "حين عاينوا الخيبة والشقوة وسوء الحساب يوم القيامة، صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم الأسارى" [1] .

– ولا شك أن الموقف يوم القيامة – وخاصة ماصورته الآيات السابقة على تلك الآية - من الصعوبة والشدة بحيث يظهر على وجوه الكفار أثره من العناء والخشوع . والتأمل في الآيات السابقة يؤكد ذلك [2] .

– أما وجوه الكفار في سورة الغاشية ، فإنها حين غشيتها الغاشية "وهي الداهية التي تغشي الناس بشدائدها يوم القيامة" [3] ظهر عليها الذل والخضوع والنصب والشقاء ، وذلك حين عاينت مصيرها الذي فصلته الآيات اللاحقة وهي قوله تعالى : ﴿ **تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً** ﴾ إلخ .

وقد جاءت وجوه الكفار بهذه الصفات المذكورة (خاشعة ، عاملة ، ناصبة) مقابلة لوجوه المؤمنين التي سبقت الإشارة إليها وهي الوجوه الناعمة التي يظهر عليها الرضا والسعادة لما أعد لها من جزاء طيب .

7- تَصْعِير الخدّ :

– ونختم كلامنا عن تغييرات الوجه بتصعير الخد والصعر في الأصل : "داء يأخذ الإبل في رؤوسها فتلتوى منه أعناقها" [4] .

– فإذا استعير للإنسان أفاد معنى الكبر والتعالي والإعراض عن الناس ، وقد نهى القرآن الكريم عنه ضمن وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه ، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ** ﴾ (لقمان : 18) .

– وقد جاء النهي عن الكبر هنا في صورة النهي عن مجرد إمالة الخد عن النظر إلى الناس ، وهو يعني النهي عن الإعراض عنهم بكل الوجه، فالتعبير هنا بالجزء وإرادة الكل ويستفاد من ذلك "أن النهي عن الأدنى يلزم منه النهي عن الأعلى ، وهو الطريق الأبلغ في النهي عن التكبر على منوال قوله تعالى ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ** ﴾ لأن دلالة النهي عن التأفف تدل على النهي عن الضرب" [5]

---

(1) الكشاف : 89/3 .

(2) الآيات المقصودة تبدأ من قوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ إلى ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ (طه : 102- 111) .

(3) البحر المحيط : 462/8 .

(4) لسان العرب (صعر) .

(5) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية . د. هنداوي : 128 .

– كما أن الكناية عن صفة الكبر هنا توحي بأن الكبر داء يصيب بعض الناس فيفقدهم الاعتدال والاتزان وينفر منهم الناس" [1] .

– فتصعير الخد كما تلوي الإبل أعناقها - يزري بالهيئة الحسنة وبالقوام المعتدل . تلك الهيئة وذلك القوام اللذين عبر عنهما القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الانفطار : ﴿ **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ وفي سورة التين : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ .

– ومن يتكلف تغيير تلك الصورة باللجوء إلى هذه الهيئة الزرية بقصد الاستعلاء والاستكبار على الناس – إنما يعكس شعوراً نفسياً كاذباً بالتميز والتفوق على بقية الناس . وهذا الانحراف الجسدي بالوجه والخد تعبير بلغة الوجه عن الانحراف النفسي والخلقي .

– وفي الآية كذلك استعارة مكنية حيث شبه المتكبر بالبعير المصاب بداء الصعر بجامع لي العنق فيهما ، ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الصعر ، وبلاغة الاستعارة هنا تكمن في التنفير مما يشبه الصعر وهو الكبر والتعالي ، كما إن ذلك يبقي صورة المتكبر الشائنة ماثلة أمام كل من يتلو القرآن فيرعوي عنها وينفر منها .

– ثم إن تشديد العين في الفعل (تصعر) يدل على المبالغة في الفعل والتكلف فيه وهذا أمر مذموم .

– والتعبير بالخد ، لأنه أعلى الوجه وبه ترتسم أمارات الكبر أو التواضع وإضافته إلى كاف الخطاب (خدك) يستحضر صورة المصعر خده أمامنا كأننا نراه ، فنسخر منه ومن استعلائه الكاذب كلما تليت تلك الآية .

– ولفظ (للناس) يوحي بمدي تأثير هذا السلوك الشائن على مشاعر الناس وإحساسهم ، "فالكبر مرض نفسي يمتد أثره من الشخص المريض إلى الناس فينمي فيهم روح الكراهية والتباعد .. ويزيد في البغض الاجتماعي" [2] .

– أما بقية الآية الكريمة وهي : ﴿ **وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ (لقمان : 18) فإنها نهي عن العجب بالنفس والخيلاء على الناس والتبختر في المشي .. وهذا النهي امتداد للنهي الذي صدرت به الآية وهو تصعير الخد، وهو وثيق الصلة به لأن كليهما من صفات المتكبرين ، ونادراً ما ترى المصعر خده تكبرا إلا مختالا في مشيته مزهوا بنفسه .

---

(1) فنون التصوير البياني ، د. توفيق الفيل 294 ط الكويت 1987 .
(2) راجع ذلك بتوسع في (التصوير الساخر في القرآن الكريم) د. عبد الحليم جفني ص 175 .

– ونشير في النهاية إلى أن الهدف الديني من عرض صورة المتكبر بهذه الواقعية الحركية الساخرة مما يزيد الناس بغضاً في صفة الكبر والمتصفين بها ويدعوهم إلى التواضع ونشر روح المحبة والمودة بين الناس وبذلك تؤدي البلاغة القرآنية طَلِبَةَ الفن بالتعبير الجميل وطَلِبَةَ الدِّين بالتنفير من هذه الصفات الذميمة ..

– وأخيرا فإننا نرجو بذلك أن نكون قد تتبعنا التعبير بالوجه في القرآن الكريم في مختلف أوضاعه وألوانه وخلجاته وأن نكون قد كشفنا عن لغة الإشارة الخاصة بالوجه وبلاغتها وقدرتها على الإبانة عن أدق أسرار النفس البشرية وأحوالها والله المستعان .

مراجع البحث

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

1. أساس البلاغة ، الزمخشري ، ط : دار الفكر – بيروت 1989 .
2. أسباب النزول ، السيوطي ، هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم ، إعداد :محمد الحمصي .ط دار الرشيد – دمشق .
3. أسرار البيان – د.علي العماري ، مصر ، 1992 م .
4. الإشارات الجسمية : دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل د.كريم زكي حسام الدين ، ط : الأنجلو المصرية ، مصر ، 1991م .
5. أصوات وإشارات –كوندرانوف - ترجمة : إدور يوحنا ط 1 - وزارة الإعلام – العراق - وله ترجمة أخرى لشوقي جلال ، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب .
6. الإكسير في علم التفسير – الطوفي - تحقيق د.عبدالقادر حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر .
7. البصائر والذخائر – أبو حيان التوحيدي : علي بن محمد بن العباسي . تحقيق : أجمد أمين ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر - 1953م .
8. البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية - د. عبدالله هنداوي ط.الأمانة ، مصر 1995م
9. التشبيهات - ابن أبي العون (أبو إسحق إبراهيم بن محمد) ت : د. محمد عبد المعين ط .كمبردج 1950م .
10. التصوير الساخر في القرآن الكريم - د.عبد الحليم حفني ، ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992م .
11. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) القاضي البيضاوي - المكتبة الإسلامية - ديار بكر – تركيا .

12. تفسير البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي الغرناطي _ محمد بن يوسف : (دار الفكر ، بيروت) .
13. تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر .
14. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط / دار الريان للتراث – القاهرة .
15. تفسير النهر الماد من البحر- أبو حيان الأندلسي ، هامش على البحر المحيط .
16. حاشية محيي الدين شيخ زاده - على تفسير البيضاوي ، المكتبة الإسلامية - ديار بكر- تركيا .
17. الخصائص - ابن جني – تحقيق : محمد على النجار – ط – بيروت .
18. دراسات في علوم اللغة - د. فاطمة محجوب - دار النهضة العربية – مصر .
19. دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني – ت : محمود شاكر ط : الخانجي – مصر .
20. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري – ط - دار صادر – بيروت .
21. شرح ديوان المتنبي – البرقوقي - دار الكتاب العربي - بيروت 1987م .
22. الظرف والظرفاء - الوشَّاء (أبو الطيب محمد بن إسحاق) عامل الكتب بيروت 1324هـ .
23. فنون التصوير البياني - د. توفيق الفيل – الكويت 1987م .
24. في ظلال القرآن – سيد قطب - دار الشروق - مصر 1985م .
25. القاموس المحيط – الفيروز آبادي ط - دار إحياء التراث العربي - بيروت – لبنان .
26. كتاب الفراسة ، الرازي (أبو عبدالله فخر الدين محمد بن عمر) ت - د. يوسف مراد : ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر - 1982م .
27. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الزمخشري (جار الله ، محمود بن عمر) دار الكتاب العربي – بيروت .
28. لسان العرب – ابن منظور – الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .
29. مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب ط 6 - دار المعارف ، مصر .
30. المفردات في غريب القرآن - الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد) ت - محمد سيد كيلاني –الناشر – كراتشي – باكستان .
31. الانتصاف - الإمام أحمد بن المنير الإسكندري - حاشية على الكشاف .